من مكونات المشهد الحربي

في الشِّعْر الجَّاهِلي

د. إسمَاعيْل أحْمَد العَالم

جامعة اليرموك

"اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليفة منذ برأها الله. وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض، ويتعصب لكل منها أهل عصبيته. فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان، إحداهما تطلب الانتقام، والأخرى تدافع، كانت الحرب. وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل".

"مقدمة ابن خلدون، ج٢، ص٨٢٣"(١)

عند التحليل والتأمل نجد أن هدف كل حرب هو تحقيق السلم، لأن البشر إنما يقتلون من أجل إحلال شكل من أشكال السّلم كلما أعوزتهم صيغ التفاهم السياسية. وقد عدّت الحرب مواصلة للسياسة بوسائل أخرى، أي أنها لا تعدو أن تكون وسيلة. وهي لئن عدّت وسيلة "عنيفة" فهي ليست على ما يبدو أكثر من السياسة عنفاً، ولما كانت العلاقة بين الحرب والسلم هي العلاقة بين القوة والقانون، فإن السلم، أي القانون، ينفي الحرب وينقضها، غير أنه لا يتحقق في الأغلب الأعم إلا من خلالها، والحجة في ذلك أن أغلب الحروب انتهت باتفاقيات سلم وعقود صلح.

ومن المفيد لهذا البحث أن نتعرف إلى المعاني التي تدور عليها مادة "ح. ر. ب" فهي عند ابن منظور فعل وشعور وحالة، فالحرب فعل تترجمه الإغارة والسلب والنهب والسبي والتقتيل، فهي تارة غارة إذا كانت سريعة خاطفة فجئية، وكانت من

طرف واحد، وكان هدفها الأساس النهب، وطوراً حرب صراح إذا اتسع مداها واستعدّ لها الطرفان وكانت أكثر تعقيداً وأوخم نتائج. والحرب شعور، دلّ على ذلك وجود "حرب" بمعنى اشتد غضبه، و"احْرَنْبَى" بمعنى غضب وتهيّأ للشر. والحرب حالة، تقصر أو تطول، أي وضع نفسي هو وضع التعبئة النفسية والمادية تحفّزاً للقاء عدو أو تحسّباً لهجوم مباغت منه(٢).

وكانت الصلات القبلية في الجاهلية قد أسست على العداء والحروب المتوالية لغياب السلطة المركزية المنظمة، ولم يكن السلم يخيّم إلا عند اتفاق قبيلتين أو أكثر عليه، وشجع نمط الحياة القائمة على الرعي والتّرحال وعدم وجود ملكيّة مضمونة الجاهليين على أن تنشأ بينهم ظاهرة الإغارة، ودرّبتهم خصوصيات شبه جزيرة العرب الجغرافية على الهجوم من بُعد، فرسخت فيهم التقاليد الحربية، وأصبحت الحرب وظيفة اجتماعية من أهمّ وظائف الحياة، بل إنّ حياتهم كانت "دامية حمراء لا تهدأ نارها ولا يخمد أوارها، وكانت القبائل في حركتها الدائبة من أجل لقمة العيش وجرعة الماء ونعرة السيادة، لا تكاد تنفض أيديها من وقعة من الوقائع حتّى تغيّرها في وقعة أخرى. وكانت الحياة العربية فيما قبل الإسلام بحق أياماً وحروباً مستمرة"(٣).

ولعلّ المبرّر لتتبع مكونات المشهد الحربي في الجاهلية يعود إلى أن الإنسانية قد قطعت من عمرها قروناً طويلة منذ وجد الإنسان الأول إلى اليوم، تطورت فيها الحياة، وخطا الجنس البشري فيها خطوات كثيرة جداً في سبيل التقدم الذي يسمونه المدنية والحضارة، فقد يجد الباحث المدقق أنّ السبب الذي كان الإنسان الأول يحارب من أجله وهو في بدء حياته في طور الطفولة الإنسانية ودور الهمجية، هو السبب نفسه الذي يحارب من أجله الإنسان وهو في درجة عالية من المدنية والحضارة. لكن مما لا شك فيه أن أساليب الحروب وأدوات القتال، وطرقه، ووجهات النظر تتغير

تغيّراً كبيراً في كل طور عن سابقه، تبعاً للتطور في التفكير، والتوسع في العلم، والازدياد والكشف والاختراع.

ولا ريب أن الإنسان، بحكم ما في غرائزه من حب الاستطلاع، يلذّ له أن يقف على مكونات المشهد الحربي في الجاهلية، فيتتبع العدد والعدّة التي تشتمل رفاق القتال من ناحية، والخيل والسلاح من ناحية أخرى. ويتتبع المعركة، ويقف عند أبطالها ليتعرف إلى صفاتهم وخصالهم الحربية وأدائهم وأخلاقهم العسكرية، كما يقف عند العدو للتعرف إلى حال قدومه لأرض المعركة، وما حل به من فرار وتقتيل وتجريم وأسر.

العدد والعدّة:

من الطبيعي أن يتحدث الشاعر الجاهلي عمّن يشنون الحروب والغارات وما يتصفون به من حزم وقوة عنف وتصميم على طلب الوتر وأخذ الثأر. وأن يتحدث عن عدّة الحرب، فالعدد والعدّة ركن يحتوي على معطيات التعبئة المادية والنفسية الضرورية لكل حرب مهما كان حجمها، ويشمل عند شاعر الجاهلية رفاق القتال والخيل والسلاح.

أ- أمّا رفاق القتال:

فكان يهتم بخصالهم النوعية لا العددية، وأهم هذه الخصال الشجاعة، وهي الانتصار الداخلي على النفس والتغلب على هواجسها ومخاوفها، وعدّ ذلك خطوة أولى ضرورية للتغلب على الخصم. يقول طرفة بن العبد(٤):

ولو كُنْتُ وغْلاً في الرجال لضرّني عداوةُ ذي الأصْحَابِ والمُتَوَحدِ
ولكِنْ نفى عني الأعادي جرأتي عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي

فالرجولة الحقة هي التي تتمثل في الشجاعة والفروسية والإقدام وخوض الحروب وكسب المغانم وتحمل المكاره.

ويفخر عمرو بن كلثوم بنفسه وقومه، ويتباهى بشجاعتهم وأيامهم التي امتلأت بالقتل والدماء، وعصيانهم الملوك إذا تجبروا وطغوا(٥):

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

وإلى الشجاعة تنضاف المهارة والدراية بفنون الحرب والقدرة على الخروج من مضايقها والإفلات من قبضاتها، وهي صفات تكتسب بالدربة والتجربة، يقول عبيد ابن الأبرص(٦):

أمّا إذا كان الطّعانُ فإنّهُمْ قد يَخْضِبُونَ عَوَاليَ المُرّانِ
أمّا إذا كان الضّرابُ فإنّهم أسْدٌ لدى أشبالِهِنَّ حَوَاني
أمّا إذا دُعِيَتْ نَزَالِ فإنَّهُمْ يَحْبُونَ للرُّكَباتِ في الأبْدَانِ

ويقول رجل من غنيّ(٧):

لا تُخْفَضُ الحرب للدنيا إذا استَعَرَتْ ولا تبوخ إذا كنّا لها شُبُها

ويقول عنترة(٨):

من كلّ اروعَ للكماة مُنازل ناج من الغمرات كالرّئبال
ومعاودِ التكرار طال مُضِيَّهُ طعناً بكُلّ مثقّف عسَّالِ

ويقول ضابئ بن الحارث[٩] مترجماً ما يجب أن يأخذ المقاتل به نفسه وما يجب أن يتجنبه:

وفي الشك تفريطٌ وفي الحزم قوةٌ ويخطئ في الحَدْسِ الفتى ويصيب

ومن خصال رفاق القتال الصبر والثبات وعدم الفرار، وتفريج الكروب في الشدائد بالسلاح، وادعاء أنهم يظلون على ظهور خيلهم تتعاورهم الرماح ولا ينحرفون عن الطعن، بل يبقون في الميدان إلى أن يفوزوا بالنصر،

يقول عنترة[١٠] واصفاً رفاقه بالصبر على ويلات الحرب وجراحاتها:

وفوارسٍ لـي علمتُهُم صُبُرٍ على التكرار والكَلْمِ

ويقول الحصين بن الحمام[١١] مصوراً المعركة التي خاضها قومه:

ولمّا رأيت الودّ ليس بنافعي وإن كان يوماً ذا كواكب مظلماً
صبرنا وكان الصبر فينا سجية بأسيافنا يقطعن كفّاً ومعصما

ويقول عدّي بن علاء الغساني[١٢]:

فَصَبَرْنَ النفوسَ للطّعْنِ حتى جَرَتِ الخيلُ بيننا في الدماء

ويقول ضابئ بن الحارث[١٣]:

فلا خير فيمن لا يوطّنُ نفسه على نائبات الدهر حين تنوب

وأكد الشاعر الجاهلي أهمية كرم الأصل والأخلاق الحميدة، فهي صفات ترشح القوم للاستبسال والغلبة، يقول الحادرة[١٤]:

إنا نَعِفُّ فلا نَريبُ حَليفَنَا ونكُفُّ شُحَّ نُفُوسِنا في المَطْمَعِ

ونقي بآمَنِ مالِنا احسَابَنَا وَنُجِرُّ في الهيجا الرماحَ وندَّعي
ونخوضُ غمرةَ كلّ يوم كريهةٍ تُرْدَى النفوس وَغَنْمُها للأشجع
ونقيمُ في دارِ الحفاظ بيوتَنَا زمناً، ويظعَنُ غيرنُا للأمْرَع

ويقول سلامة بن جندل في قومه بني سعد(١٥):

كُنَّا نَحُلُّ إذا هبَّتْ شآمِيَةً بكُلِّ وادٍ حَطيبِ الجَوْفِ مَجْدوبِ
شيبِ المَبَارك مدروسٌ مَدَافِعُهُ هابي المراغ قليلِ الوَدْقِ مَوْظُوبِ
كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ كان الصُّراخ له قَرْعَ الظنابيب
وشدَّ كُورٍ وجناءَ ناجيةٍ وَشَدَّ سَرْجٍ على جرداءَ سُرْحُوبِ

ويقول المرقش الأكبر(١٦):

لكننا قومٌ أهابَ بنا في قومنا عفافةٌ وَكَرَمْ
أموالُنا نقي النفوسَ بها من كلِّ ما يدني إليه الذّمّ
لا يُبْعِدِ اللـهُ التلبّبَ والـ غاراتِ إذْ قال الخميسُ نَعَمْ

ومن الصفات التي يجب أن يتحلى بها رفاق القتال الصدق والإخلاص لما من أجله يحاربون، يقول زهير بن أبي سلمى(١٧):

وبالفوارس من وَرْقَاء قد عُلِمُوا إخوان صِدْقٍ على جُردٍ أبابيلِ

ويقول عبيد بن الأبرص(١٨):

وخِرْقٍ من الفتيان أكرم مصدّقاً من السيف قد آخيتُ ليس بمذروبِ

ويقول عنترة(١٩):

وإخوانِ صِدْقٍ صادِقين صَحِبْتُهُمْ على غارةٍ من مثلها الخيلُ تُسْرَجُ

ب- الخيل:

تعدّ من أولى معدات الحرب، فعلى صهواتها يتقابل الأبطال مع أعدائهم في حربهم المبيدة المزمعة، وعلى مدى قوتها وخبرتها بالحرف تكون درجة القتال ونتيجته، ولذا كان الشعراء يبالغون في وصف الخيل بالجودة والعتق والقوة والسرعة، وتعوّد الحرب والخبرة بأحوالها بحيث لا تؤثر فيها شدتها وأهوالها، وكان عرب الجاهلية يعدّون لأيامهم وغاراتهم وحروبهم جيّد الخيل وأنفسها، فقد كانت الخيل عندهم تنتقى وتربّى وتدّخر بحرص شديد لأوقات الحاجة، وكان الجاهلي يؤثرها في العناية والغذاء على أفراد أسرته، لأنها وسيلته الأولى في السيطرة على الفضاء الحربي سواء في الهجوم والغلب أم في الهروب والمنع.

يقول عبيدة بن ربيعة محذراً أحد ملوك الحيرة من أن تمتد يده إلى فرسه (سكاب)، فهي مال نفيس دونه امتشاق الحسام وخوض غمار الحرب[٢٠]:

أبيت اللعن إنّ سكابَ علقٌ نفيسٌ لا يُعارُ ولا يُباعُ
مفداةٌ، مكرمةٌ، علينا يجوعُ لها العِيالُ ولا تُجَاعُ
سليلةُ سابقين تناجلاها إذا نُسبا يضمّهما الكراعُ
فلا تطمع أبيتَ اللعن فيها ومنعُكَها بشيء يُستَطَاعُ

أما عنترة فقد فوّق جواده على زوجه وخصّه باللبن دونها وزجرها إذْ عاتبته على ذلك وهدّدها بالفراق إن هي أصرّت[٢١]:

لا تذكري مُهري وما أطْعَمْتُهُ فيكون جِلدُكِ مثلَ جلد الأجربِ
إنّ الغَبُوقَ له وأنتِ مَسُوءَة فتأوَّهي ما شئتِ ثمَّ تَحَوَّبي

ويفخر الجميع أن فرسه كانت في كُنٍ وتعاهد، ولم تحرم حسن الغذاء فتهزل[٢٢]:

جرداءُ كالصّعْدَةِ المُقامةِ لا قُرٌّ زَوَى مَتْنَها ولا حَرِمُ

ويقول الأخنس بن شهاب التغلبي إن خيل قومه مصونة مخدومة، إذ تشرب اللبن المحلوب في الغداة والعشي[٢٣]:

فَيُغْبَقْنَ أحلاباً ويُصْبَحْنَ مِثْلَهَا فَهُنَّ من التَّعْدَاءِ قُبٌّ شَوَازِبُ

ويذكر يزيد بن خذّاق الشنّي تعهده فرسه وجعل ألبان إبله جميعها حبساً عليها[٢٤]:

وداويتها حتى شَتَتْ حبشيةً كأنّ عليها سُنْدُساً وسَدوسا
قَصَرْنَا عليها بالمقيظِ لِقَاحَنَا رَبَاعِيَةً وبازِلاً وَسَدِيسَا

وفرق شاعر الجاهلية بين الخيل المحاربة، والخيل عامة، فالمحاربة لا يقف الشاعر عند صورتها الجمالية وهو الجانب الذي يبرز في تصوير الشعراء لها في أوقات السلم، ويتضح ذلك لو وازنا بين تصوير الشاعر لجواده في السلم وتصويره في الحرب، يقول زهير بن أبي سلمى واصفاً جواده الذي أعدّه للصيد[٢٥]:

ضَبَحْتُ بِمَمْسُودِ النَّواشر سابحٍ مُمِرٍ اسيلِ الخدّ نَهْدٍ مراكِلُهْ
تميم فلوناه فأُكمل صُنْعُهُ فتمّ وعزَّتْهُ يداه وكاهِلُهْ
أمين شظاهُ لم يخرَّق صِفَاقُهُ بمثْقَبَةٍ ولم تُقَطَّعْ أباجِلُهْ

وينعت السليك بن السلكة فرسه (النحّام) بالسرعة الفائقة والخفة والرشاقة[٢٦]:

كأنَّ قوائم النحَّام، لمّا تحملُ صُحْبتيَ، أُصُلاً، مَحَارُ

على قَرَمَاءَ، عاليةٌ شَوَاهُ كأَنَّ بياضَ غُرّتِهِ خِمارُ

ثم يقول:

كأنَّ مناخِرَ النَحَّام لمّا دنا الإصباح كِيرٌ مُسْتَعَارُ
تراها من يبس الماء شُهْباً مُخَالِطُ دُرَّةٍ منها غِرَارُ

ويصف المرقش الأصغر فرسه الذي يخايل به ويسبق[٢٧]:

أسيلٍ نبيلٍ ليس فيه معابة كُمَيْتٌ كلون الصّرف أرجلَ أقْرَحُ
على مثله آتي النَّديَّ مخايلاً وأغْمِزُ سراً: أيُّ أمْرِيَّ أرْبَحُ
ويسبقُ مطروداً، ويلحَقُ طارداً ويخرجُ من غمّ المضيق ويجْرَحُ

أما الخيل المحاربة فقد حشد لها الشاعر الجاهلي الصفات والصور المتصلة بالحرب، فهو لا يملك من الوقت ما يبذل في الوصف الجمالي، لذلك تختفي الناحية الجمالية أو تكاد بل تبرز في الخيل الناحية المرعبة والدمامة وهي صفات تستدعيها الحرب لتماشيها مع الرغبة في إرهاب العدو.

يقول عمرو بن الأهتم[٢٨]:

نلقي الحديد علينا ثم تلحقنا قَبَّ مدربةٌ شُعْثٌ نواصيها
معوّداتِ جراحات الخدود إذا كان اللقاءُ وطعناً في مآقيها
حتى تراها أسَابِيَ الدماءِ بها كأنما كُسِيَتْ حَبْراً هَوَادِيها

ويقول عنترة[٢٩]:

وإنّا نَوُدُ الخيل تحكي رؤوسها رؤوس نساءٍ لا يَجِدْنَ فَوَالِيَا

ومن أبرز الصفات التي تدعوها الحرب، فقد أورد منها الشاعر الجاهلي صفات الفراهة والضمور والقوة والسرعة، فبدت في وصف الفرس الخذروف عند طفيل الغنوي[٣٠]:

إذا قيلَ نَهْنِهْها وقد جَدَّ جِدُّها تَرَامَتْ كخذروفِ الوليدِ المثقَّبِ

وصورة الريح في قول عبدالله بن مرداس[٣١]:

صبحناكُمُ العُوجَ العناجِيجَ بالضُحى تمرُّ بنا مرَّ الرّياح السّواحِكِ

وصورة النار في قول امرئ القيس[٣٢]:

سَبُوحاً جَمُوحاً واحضارُها كمعمعةِ السَّعَف المُوقَدِ

وصورة الحدأة في قول عامر بن الطفيل[٣٣]:

والخيلُ تَرْدي بالكمُاةِ كأنَّها جِدَأ تتابَعَ في الطريق الأقْصَدِ

وصورة العقاب في قول زيد الخيل[٣٤]:

ونجَّاك يومَ الرَّوْعِ إذْ حَضَر الوغى مِسَحٌ كفتخاءِ الجناحَيْن كاسِرُ

وتنضاف إلى السرعة صفة أخرى متفرعة عنها هي اليقظة والنشاط، يقول عامر بن الطفيل[٣٥]:

فلو شئت نجتني سبوحٌ طِمِرَّةٌ تَحُكُ بِخَدَّيْها العِنَانَ وَتَمْزَعُ

ويمتدح من الخيل أيضاً ما توافر فيها الإقدام في الغارات والمعارك، والتمرس والانقضاض[٣٦]:

وجياداً لنا نُعَوّدها الإقْـ ـدامَ إنْ غارَةٌ بَدَتْ وازبأرَّتْ
وانقضّتِ الخيلُ من وادي الذِّئاب وقد أصْغَتْ أسِنَّتَهَا حُمراً من الوَدَجِ[٣٧]

ويقول عنترة[٣٨]:

وخيلٍ عوّدَتْ خَوضَ المنايا تُشَيِّبُ مَفْرِقَ الطّفل الوليد

واستطاع الشاعر الجاهلي الفارس رصد خلجات دقيقة ينفذ من خلالها إلى نفس فرسه ويسجل ما بينه وبينها من تجاوب وتفاهم، وهو تفاهم يدعو إلى القول أنه التحام كائنين– إنسان وحيوان– في كائن واحد، بينهما من التبادل الروحي والعاطفي ما لا نعرف له إلّا أمثلة نادرة في الشعر العربي القديم مثل محاورة عامر ابن الطفيل لجواده[٣٩]:

وقد علم المزنوق أنّي أكُرُّهُ عَشِيَّةَ فَيْفِ الريح كَرَّ المُشَهَّرِ
إذا ازورَّ مِنْ وَقْعِ الرماحِ زجرتُهُ وقلتُ له ارجع مقبلاً غير مُدْبِرِ
وأنبأتُهُ أنَّ الفِرارَ خَزَايَةٌ على المرءِ ما لم يُبْلِ عُذراً فَيُعْذَرِ
ألست ترى أرماحهم فيَّ شرَّعاً وأنتَ حِصانٌ ماجِدُ العِرْقِ فاصْبِرِ

ومحاورة عنترة لجواده[٤٠]:

ما زلتُ أرْميهم بثغرة نحره وَلَبَانِهِ، حتى تسربلَ بالدَّمِ
فازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا إليَّ بعبرةٍ وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقْمَها قيلُ الفوارس وَيْكَ عنتر أقدم

ج. السلاح:

كانت البيئة الجاهلية تساعد على وجود المنازعات والمشاحنات، وانتشار الخوف والفزع، وتوّقع الخطر في كل لحظة، مما نشأ عنه كثرة الحروب، لذا كان من الطبيعي أن تصبح الأسلحة والمعدات الحربية ضرورية للحياة في ذلك الوقت، وأن يهتم بها العربي الجاهلي اهتماماً كبيراً، ويبذل كل ما يستطيع للحصول على أكبر كمية من خيرها وأجودها يقول أمية بن أبي الصلت[٤١]:

وأرصدْنا لريب الدهر جُرداً تكون متونُها حصناً حصينا
وَخطِيَّاً كأشطان الركايا وأسيافاً يُقَمْنَ وينحنينا

وما كان للبدوي أن ينزل الأماكن المخيفة لولا اعتماده على سلاحه، يقول ربيعة بين مقروم:

وثغرٍ مَخُوفٍ أقمنا به يَهَابُ به غيرُنا أن يُقيما
جعلنا السيوفَ به والرماحَ معاقلَنا والحديدَ النظيا[٤٢]

وبعُدد الحرب كانت له الجرأة على خوض غمار الحرب، وبها كان يخيف موعديه، ويصدّ من يبغي ضيمه، يقول صخر الغيّ، بعد أن وصف معداته الحربية[٤٣]:

ذلك بزّي ولم أفرِطه أخاف أن يُنْجزوا الذي وعدوا
فلست عبداً لموعِديَّ ولا أقبل ضيماً يأتي به أَحدُ

وعلى درجة تلك المعدات من الوفرة والجودة تتوقف درجة الحرب ونتيجتها، فما أعدّ خير إعداد كان أحسن ما يصلح للقتال، يقول سعد بن مالك البكري[٤٤]:

والحربُ لا يبقى لجا حِمِها التخيُّلُ والمرَاح
إلّا الفتى الصبّار في النجَدَات والفرسُ الوَقاح
والنثرة الحصداء والبيض المُكَلّل الرِّمـاح

وما كان العربي يتمنى شيئاً يوم الشدّة سوى رمح قوي حاد، وسيف حسام صقيل، وفرس جرداء سلهبة، ودرع سابغة متينة، ذلك هو كل ما كان يبغيه من مال، يقول عامر بن الطفيل[٤٥]:

يوم لا مالَ للمُحارب في الحَرْ بِ سِوَى نَصْلِ أسْمَرَ عَسَّالِ
ولجامٍ في رأس أجْرَدَ كالجذْ عِ طُوالٍ وأبيضَ قصَّال
ودِلاصٍ كالنِّهْيِ ذاتِ فَضُوَلٍ ذاك في حَلْبَةِ الحَوَادِثِ مالي

وقد بلغ من اعتزاز العربي بمعدات الحرب وعظم تقديره لها أن كان لو ملكها وحدها دون أن يكون في حيازته أي مال آخر لعدّ نفسه غنياً، ولو مات عنها لكان في توريثها ورثته من بعد خير غناء.

وسبب اهتمام العربي بمعدات الحرب أنه بها يحافظ على حياته وحياة قبيله، ويصون شرفهم، ويدافع عن عزتهم، ويرضي رغبتهم، ويحقق أمانيهم، يقول عامر ابن الطفيل[٤٦]:

فما أدْرَكَ الأوتارَ مثلُ مُحَقِّقٍ بأجْرَدَ طاوٍ كالعَسِيبِ المُشَذَّبِ
وأسْمَرَ خطيٍّ وأبيضَ باترٍ وَزَعْفٍ دِلاصٍ كالغدير المثوِّب
سلاحُ امرئٍ قد يَعْلَمُ الناسُ أنه طَلُوبٌ لثارات الرّجالِ مُطَلِّبِ

وعندما نتحدث عن الأسلحة عند عرب الجاهلية ليس من همّنا أن نستخرج من شعرهم ثبتاً بأسماء الأسلحة التي وردت فيه وأنواعها وموادّ صنعها، وخصائصها العامة، فذاك أمر أغنانا عنه صاحب "صبح الأعشى"[٤٧]، بل غايتنا إبراز الناحية النوعية والوظيفية والدلالة الرمزية للسلاح في نطاق معنى الحرب في الشعر الجاهلي، فالسلاح – مهما كان بدائياً– وجه من وجوه الذكاء في الحرب، وهو ما تضيفه الثقافة إلى الطبيعة، أي أنه امتداد للقوة في شكل متصل بالتقنية والصناعة، وبدونه لا يصدق الحديث عن الحرب، وهو إلى ذلك ضمان نفسي، فإذا عددنا الجواد– في الحرب البدوية– امتداداً للساقين، فإنّ السيف والرمح والسهم امتداد لليدين، أي تفخيم للقوّة، كما أنّ الدرع والقناع تفخيم للبدن، فإذا أضفنا إلى وجود السلاح توافر نوعيته الجيدة تمّ للمقاتل حظ مهم من حظوظ الغلب، كاف وحده أحياناً لإدخال الوجل والرّعدة على قلوب خصومه.

ولقد اهتمّ الشاعر الجاهلي في شعره الحربي إلى جانب الناحية الكميّة بنوعية سلاحه بصورة بارزة، فقد عدّد في ذكره السيف مثلاً، الأسماء والصفات فجعل منها ما يتعلق بمكان الصنع، فكانت صفات "الهنديّ" و"المهنّد" و"الهنداونيّ" و"المشرفيّ" و"اليمانيّ"، وما يتعلّق بالحدّة والمضاءة فكانت صفات "الباتر" و"المخذم" و"الصارم" و"الفيصل" و"المفصل" و"الفصّال" و"العضب" و"الماضي" و"الصيقل" و"الحسام"، وجعل منها ما يتصل بالطول والاستواء فذكر "القضيب" وما يتعلق بالعرض فذكر "الصفيحة"، وما يتصل بالصلابة وصراحة المعدن فكانت صفات "الحديد" و"الأبيض" و"الذكر". وذكر من الرماح "الخطيّ" و"الرديني" و"السمهريّ" و"الذّابل" و"المعلّب" و"الأصمّ" و"السفّاك" و"الدقيق" و"الأسمر". ولا شك أن لهذا التعداد والتكثيف طاقة تأثيرية تكسبها الإيحاءات والمعاني فعلاً مهدّماً لمعنويات الخصم.

وكان السلاح عند الجاهليين وخاصة عند الشعراء الفرسان لا يكاد يكون هجومياً بحتاً، إذْ كثر تواتر السلاح الهجومي عندهم كالسيف والرمح والسهم، في حين قلّ بصورة واضحة ذكر سلاح الدفاع والتحصن كالدرع مثلاً، التي لا يذكرونها إلّا في نطاق فخرهم بتمام سلاحهم قبل المعركة، أو حين تشقها رماحهم وهي لبوس أعدائهم.

وإذا تتبعنا صور السلاح عند الشاعر الجاهلي، كانت الصورة الأولى صورة مألوفة متداولة عند شاعر الحماسة ومضمونها استخدامه في قتال أعدائه؛ أي أنه وسيلة من وسائل الحرب، يقول عبيد بن الأبرص[٤٨]:

وَنَصُدُّ الأعداءَ عنَّا بِضَرْبٍ ذي خِذَامٍ، وطعْنُنَا بالحرابِ

ويقول الأعشى[٤٩]:

جَبَهْنَاهُمُ بالطَّعْنِ حتّى تَوَجّهوا وهَزُّوا صُدُورَ السَّمْهَرِيِّ المُقَوَّمِ

ويقول عامر بن الطفيل[٥٠]:

صَبَحْنَاهُمُ بكُلِّ أَقَبّ نَهْدٍ وَمُطَّرِدٍ لَهُ يَقِدُ الحديدُ
وأبيضَ يَخْطَفُ القَصَرَاتِ عَضْبٍ رقيقِ الحَدِّ زيَّنَهُ عمُودُ

وللسلاح عند شاعر الجاهلية صور أخرى مطبوعة بطابع الأناسة إذْ تبرز ما بين الفارس وسلاحه من علاقات مشحونة شحناً عاطفياً- كما رأينا في حديثنا عن الفرس- وصلات ووشائج قربى تتمثل في التلازم بين الفارس والسلاح، يقول عنترة[٥١]:

سيفي أنيسي وَرُمحي كلّما نَهِمَتْ أسْدُ الدِّحَالِ إليها مالَ جانِبُه

ويقول أيضا[٥٢]:

وهو يَحْمي معي على كلِّ قِرنٍ مِثْلَمَا للنَّسيبِ يَحْمي النّسيبُ

بل إنّ ظروف عنترة الخاصة وحماسة الحرب ونشوة النصر تصل به إلى تعشّق السلاح بدل المرأة في نوع من التعويض النادر(٥٣):

وإنّي أعْشَقُ السُمْرَ العوالي وَغَيْري يعشَقُ البيضَ الرِّقاقا

فعنترة الذي لم يحظ بالحبّ، أحبّ ما اعتقد أنه كفيل بتحقيق الحبّ واللذة والكمال الإنساني معاً(٥٤):

وَتُطْرِبُني سيوفُ الهند حتّى أهيمَ إلى مضاربها اشتياقا

وللشاعر الجاهلي في تصوير سلاحه أساليب أخرى تضيف إلى هذه العلاقة الإنسية معاني التقليل من شأن العدو والاستخفاف به والاستهزاء منه، يقول سحيم ابن وثيل(٥٥):

ونحــن كَسَــوْنا هامَــةَ ابــن خُوَيْلِــدٍ حُسَاماً إذا ما صَادَفَ العَظْم صَمَّمَا

ونحــنُ كَسَــوْنَا المَــرْءَ عَمْــرَاً مُهَنَّــداً رقيــق النــواحي كالعقيقــة مِجْذَمــا

ويقول عنترة(٥٦):

وسيفي كان في الهَيْجَا طبيباً يُدَاوي رأسَ مَنْ يشكو الصُّدَاعَا

ويقول عمرو بن كلثوم في معلقته(٥٧):

نــزلتُمْ منــزلَ الأضيــاف مِنَّــا فَعَجَّلْنَا القِرَى أنْ تَشْتُمُونَا

قريناكُــــمْ فعجَّلْنَــــا قِراكــــم قُبَيْلَ الصبحِ مِرْدَاةً طَحُونَا

ويقول الحصين بن الحمام منددا بخصمه ومستخفاً به[٥٨]:

نُطَارِدُهُمْ نستنقِذُ الجُرْدَ كالقنا ويستنقِذُونَ السَّمْهَرِيَّ المُقَوَّمَا

المعركة:

وصف الشعراء المعركة بأنها شرّ كبير لا ينعب به إلّا طير الشؤم، ساحتها خطيرة وهو لها شديد، طعمها مرّ، وفزعها عظيم، تغصّ الشيخ المجرّب، وتخلع الأفئدة، وتطير العقول، وتسقط الحامل وتشيب الولدان. والمعركة لا يقوى عليها إلّا الفتى القوي الصبور على الشدائد والمكاره.

وحاول الشعراء في صورهم الشعرية للمعركة أن يصوروها بصورة بشعة مكروهة مملوءة بالأخطار والمصائب، فاتخذوا من المحسوسات التي كانت في بيئتهم ما يساعدهم على إبراز هذه الصور، وأهم ما أخذوه من المحسوسات الرّحى والنار والغبار والأسد، ومن المعنويات عبوس الخيل، فالرّحى يوضع فيها الحَبّ فتطحنه طحناً، وكذلك المعركة تجمع الناس ثم تبيدهم وتهلكهم، والنار تلتهم الحطب وتأتي عليه حتى يصير رماداً، وهكذا المعركة تهلك المتحاربين وتؤذي كل من يصيبه شررها، والشخص يشمّر عن ساقه عند الخطر علامة للجد واستعداداً للهجوم، وكذلك المعركة عندما تكون على وشك الشروع في القتال، والحيوان يكشر عن أنيابه حين يشتد غضبه، ويقصد إهلاك فريسته، وهكذا المعركة عندما يراد منها الإبادة[٥٩]. وذكر الشاعر الجاهلي عامة والشاعر الفارس خاصة الحروب التي خاض، والحروب التي يعزم على خوضها أو يهدّد بخوضها. وذكر الحرب في مختلف أطوارها: الإعداد والسّير واللقاء والإنجاز والنهاية، وذكرها أحياناً ذكراً

سريعاً في نتف شعرية مجملة، وأحياناً في قطع وأجزاء من قصائد، وخصها في مواضع كثيرة في شعره بتفصيل في ذكر مراحلها ودقائقها؛ وأصبحت الحرب عند الشاعر الجاهلي غرضاً قائماً في أغراض الشعر بذاته، تقصّد فيه القصائد، ويقدّم له بالنسيب والطليات[٦٠]. ومن اللافت للنظر في وصف الحرب عند الشاعر الجاهلي تنويعه في أسمائها وصفاتها وكناها، والمتواتر عنده في هذا الصدد ذكر كلمة "يوم" بمعنى حرب، ومعلوم أن "أيام العرب" هي "الوقائع الحربية التي كانت تدور في الجاهلية بين قبائل البدو، والتي دوّنت ابتداء من القرن الثاني للهجرة، دوّنها الرواة والإخباريون الذين اشتغلوا بالشعر الجاهلي، وهي تعني الحروب، وقبل ذلك تعني الشدائد والمحن"[٦١].

وذكر شاعر الجاهلية كلمة "يوم" غير مرة مضافة إلى مصدر مثل قوله "يوم اللقاء" مكنياً به عن الحرب تكنية لطيفة تتضمن معنى الشوق، شوقه للحرب، وكذا "يوم النزال" و"يوم الطعن" و"يوم الطعان" و"يوم الزّحام" و"يوم القتال" و"يوم الهياج" كناية عن حال الغضب والثورة، وأضافه أحياناً إلى المكان الذي دارت فيه المعركة كـ "يوم العين" و"يوم المَرَوْرَاة" و"يوم الشِّعب" و"يوم النّسار" و"يوم النّباح" و"يوم جواثي" و"يوم المشقّر"، وحدّده أحياناً أخرى تحديداً ظرفياً زمانياً، يقول عامر بن الطفيل[٦٢]:

بالكَوْرِ يومَ ثوى الحُصَيْنُ وقد رأى عَبْـــدُ المَـــدَانِ خُيُولُهَـــا تعـــدو
وقد علموا أنّي أكُرُّ عليهـــــــم عشـــيّة فَيْـــفِ الرّيـــح المُـــدَوِّرِ

ويقول علقمة بن عبدة[٦٣]:

فقـاتَلْتَهُم حـتى أتَّقَـوْكَ بكبشهـم وقد حانَ من شمس النهار غُروبُ

ويقول عبيد بن الأبرص[٦٤]:

وغـداةَ صَـبَّحنَ الجِفَـار عَوَابسـاً يَهْـدِي أوائلَهُـنَّ شُـعْثٌ شُـزَّبُ

ويقول عنترة[٦٥]:

سلـي يـا عبـلُ عنَّـا يـوم زُرْنَـا قبائـلَ عامـرٍ وبـني كـلاب

والتنويع في أسماء الحرب آية على مختلف ضروب الإحساس بها وعلى ثراء أساليب تصويرها مما يعطي صورة متكاملة الجوانب عنها، فـ "الحرب" هي التسمية الأشمل لمختلف جوانب الظاهرة العسكرية، وذلك لدلالتها على الحال النفسية والفعل القتالي معاً، و"المعركة: تعني المكان والحال تبعاً لصيغتها الصرفية، وتبعاً لمعناها الأصلي، فـ "العراك: ازدحام الإبل على الماء"[٦٦]، ومعناها "الالتحام في القنال"، مما يرشّح كلمة "معركة" للاطلاع بتصوير المظهر البصري للحرب، أما كلمة "الوغى" فتطلع بتصوير المظهر الصوتي منها، وكذلك "المعمعة" – وهي صوت الحريق في القصب ونحوه– تضيف إضافة لمسية تبعاً لمعناها "شدة الحرّ" أما كلمة "الهيجاء" ففيها معنى الغضب والثورة، وهي تلتقي بـ "الغمرة" بمعنى الشدّة، و"الوقيعة" بمعنى الصدمة؛ صدمة الحرب والقتال، تعبر عن الجانب النفسي للمحاربين وعن جوّ الحرب عموماً، بينما تدل صفة "العوان" على الحرب التي تطول ويحارب فيها مرّات، والأصل في "العوان" أنها صفة المرأة التي تزوجت غير مرّة، أي التي بدّلت الأزواج ممّا قد يوحي بالنحس والشؤم، وهي صفة تلتقي بصفة أخرى من صفات الحرب وهي "الكريهة" وتعني الانطباع الذي تخلفه الحرب في نفوس الناس وخوفهم إياها. وبهذا نرى غناء الحقل المعجمي والدّلالي المتعلّق بذكر الحرب والمعركة في شعر الشعراء الجاهليين عامة والشعراء الفرسان خاصة.

أمّا المعارك التي وصفها الشاعر الجاهلي في شعره. فمنها القصير الخاطف الموجز الذي يقتصر **على الهجوم**، يقول عامر بن الطفيل[٦٧]:

وانقَضَتِ الخيلُ من وادي الذِّبابِ وقد أصْغَتْ أسِنَّتَها حُمراً مِنَ الوَدَجِ
ولقد وَرَدْنَ بنا المدينة شُزَّباً ولقد قَتَلْنَا بِجَوِّها الأَنْصَارا
وإنّـي أكُرُ إذا أحجَمُوا بأكْرَمَ مِنْ عَطْفَةِ الضّيْغَمِ

ويقول عمرو بن الأهتم[٦٨]:

فَنَحْنُ كَرَرْنَا خَلْفَكُمْ إذْ كَرَرْتُمُ ونحنُ حَمَلْنَا كَلْمَكُمْ يَوْمَ عَيْهَما

ويقول جارية بن مُشَمِّت[٦٩]:

كررتُ الوِرْدَ يومَ جرير غَوْلٍ أُحاذِرُ بالمغيبَةِ أنْ يُلامُوا

ويقول عوف بن عَطيّة[٧٠]:

وَنَكُرُ أولاهُمْ على أُخْرَاهُممُ كَرَّ المُحَّلإِ عن خِلاطِ المَصْدَرِ

ويقول المرقّش الأكبر[٧١]:

فانقضَّ مثلَ الصّقْرِ يَقْدُمُهُ جَيْشٌ كغُلَّانِ الشُّرَيْفِ لِهَمْ

أو **قتل الأعداء** والفتك بهم وضربهم ضرباً لا هوادة فيه وإبادتهم، يقول الأضبط بن قريع[٧٢]:

قَتَّلْتُهُمْ وألَجْتُ بَلْدَتَهُمْ وأقَمْتُ حَوْلاً كاملاً أسْبِي

ويقول عامر بن الطفيل[٧٣]:

أبَدْنا حيَّ ذي البَزَرَى وَكَعْباً ومالِكَها وأهْلَكْنَا بَشِيرَا

ويقول بشر بن أبي خازم[٧٤]:

وصلَقْنَ كعباً قبل ذلك صَلْقَةً بِقَناً تَعَاوَرَهُ الأكُف مقوَّمِ

ويقول الحارق بن ظالم[٧٥]:

فَتَكْتُ به كما فتكْتُ بخالدٍ وكان سلاحي تَجْتَوِيهِ الجَمَاجِمُ

أو **العودة المظفرة** المكلّلة بالنصر، يقول عنترة[٧٦]:

وعُدْت مُخضَباً بدَمِ الأعادي وَكَرْبُ الرَّكْضِ قد خَضِبَ الجَوَادَا

ويقول عامر بن الطفيل[٧٧]:

فأبْنَا غانمين بما استَفَأْنَا نَسُوق البيضَ دَعْواها الأليلُ

ومنها معاركُ أطنبَ شاعر الجاهلية في وصف جزئياتها ودقائقها، فجاءت مطوّلة، واحتل وصفها الصفحات، إذْ ذكر فيها مكان الحرب وزحف المتحاربين بعضهم إلى بعض، ووصف السلاح وعمليات الهجوم والطعان والضرب ووطيس المعركة ومداها الزمني، وانخذال الخصوم وانهزامهم وفرارهم وتركهم الجرحى والقتلى والأسرى والسّبايا، وذكر الخيل وما تحدثه من غبار، وذكر ما لها من فضل في إحراز النصر[٧٨].

وأكثر صور المعركة بروزاً عند شاعر الجاهلية صورة "الرّحى" وصورة "النار" وصورة "الغبار" كما تتواتر في وصف شاعر الجاهلية للمعارك صور أخرى مثل صورة المقاتلين فهم "أُسد" وصورة "عبوس الخيل". فالحرب رحى ترحى، وطاحونة كبرى، طحينها الرجال، فالشاعر عمرو بن كلثوم يزهو لأن قومه قادرون على نقل الطاحونة "الرحى" إلى حيث يتخندق الأعداء فيشهد الميدان طحيناً هائلاً[٧٩]:

متى ننقل إلى قومٍ رحانا يكونوا في اللقاء لها طحينا

ويقول زهير بن أبي سلمى مشبهاً صنيع الحرب في الرجال بصنيع الرحى بالثفال[٨٠]:

فتعركُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثَفَالِهَا وتَلْقَحْ كِشَافاً ثمّ تُنْتَجْ فَتُتْمِ

ويقول مهلهل بن ربيعة إن هذه الرحى تطحن الأيدي التي تمسك قطبها، خاصة إذا كانت الرحى التي هي الحرب بين الأشقاء وأبناء العمومة[٨١]:

كأنَّا غدوة وبني أبينا بجنب عنيزة رحيا مدير

ويقول عنترة مشبهاً جولان قومه في الميدان بدورة الرحى حول قطبها، فهم يدوسون ساحة الحرب مرة بعد مرة كالرحى، فما نجا من وطأتها من دورة لا ينجو مع الأخرى، وفي هذا إشارة إلى إحداقهم بأعدائهم وتقصيهم لهم في طلبهم[٨٢]:

ودُرْنا كما دارت على قطبها الرَّحى ودارتْ على هام الرِّجال الصفائحُ

ويقول أبو الغول الطهوي ناعتاً الفوارس الذين معه، إنهم لا يملون المنايا إذا ما دارت رحى الحرب[٨٣]:

فوارس لا يملون المنايا إذا دارت رحى الحرب الزبون

ويذكر ربيعة بن مقروم ما حلّ بفرسان الأعداء إذْ صاروا عظاماً بالية عندما دارت رحى قومه(٨٤).

وصورة الرحى لئن أوحت بحركة التطويق والمحق فإنه يغلب عليها المظهر الصوتي، فهي صورة سمعية يمثل فيها الشاعر ما يمتلئ به ميدان المعركة من ضجة وصخب وجعجعة.

وصوّر الشاعر الجاهلي الحرب أنها نار توقد فتتقد، يصلى لظاها الأبطال، ويحترق بلهيبها وجمرها الجبناء، فعنترة يفخر بأنه مقدام لا يهاب ميدان القتال وخاصة إذا كانت الحرب حامية الوطيس، ونارها تتقد اتقاداً(٨٥):

وخُضْتُ بمُهْجَتي بحرَ المنايا ونارُ الحربِ تتَّقِدُ اتّقادا

ويقول زهير ابن أبي سلمى مشبهاً الحرب الشديدة بنار موقدة بحطب جزل(٨٦):

إذا لَفِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مَضرِّةٌ ضَرُوسٌ تُهِرُّ الناسَ أنيابُها عُصْلُ
قُضاعيةٌ أو أُختُها مُضَرِيَّةٌ يُحَرَّقُ في حافاتِها الحَطَبُ الجَزْلُ

والحرب يشتد اتقادها إذا توافر لها من يعمل على تهييجها وتثويرها، يقول زهير(٨٧):

متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وَتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَمُ

والحرب إذا احتدمت وتوقدت نيرانها ترى رجالها وكماتها يبلون أحسن البلاء في القتال، يقول الأعشى في مدح إياس بن قبيصة الطائي(٨٨):

وفي الحَرْبِ منه بلاءٌ إذا عَوَانٌ تَوَقَّدَ أجذَالُها

وللمعركة صورة أخرى عند شاعر الجاهلية، هي صورة "الغبار" والغبار له عنده تسميات عدّة هي "النقع" و"العجاج" و"القتام" و"الرّهج". وصورة العجاج بصرية بحتة تحتمل معنى كثرة الحركة والسرعة والاشتباك، وتسير تدرّجاً من "الغبار" إلى "القتام"، ويؤكد فيها الشاعر على التناسب الطردي بين اتساع الغبار وكثافته حتى يشبه ظلام الليل وبين المعركة، يقول عنترة[٨٩]:

وضرْبٍ وطعنٍ تحت ظلِّ عَجَاجَة كَجُنْحِ الدُّجى من وَقْعِ أيدي السَّلاهبِ
تطيرُ رؤوس القوم تحت ظلامها وتنفَضَّ فيها كالنجوم الثواقب
وتلمعُ فيها البيضُ من كلِّ جانبٍ كلمعِ بُروقٍ في ظلامِ الغياهِبِ

وكان الشاعر الجاهلي يربط بين العجاجة والظلمة، ويرى فيها منزلة تالية للنقع. يقول عامر بن الطفيل[٩٠]:

يضربون الكُماةَ في ثورة النَّقْع إذا حَرْبُهُمْ بَدَتْ واسَجَهَرَّتْ
وأثارتْ عَجَاجَةً بَعْدَ نَقْعٍ وصهيل مُسْتَرْعَدٍ فاكْفَهَرَّتْ

ويقول أيضاً[٩١]:

وأنّـي أشَمِّصُ بالدّراعين في ثورةِ الرَّهَجِ الأَقْتَمِ

ولعلّ أبرز ما يوحي به تصوير الغبار معنى عشوائية خروج الخيل من أرض المعركة أو دخولها فيها، عابسة كريهة المنظر لما بذلت أو ستبذل من الجهد في الحرب، يقول بشر ابن أبي خازم[٩٢]:

يَخْرُجْنَ مِنْ خَلَلِ الغُبَارِ عَوَابِساً خَبَبَ السباع بكُل أَكْفَ ضَيْغَمِ

ويقول الأعشى[٩٣]:

يَخْرُجْنَ مِنْ خَلَلِ الغبا رِ عَوَابِساً لُحُقَ الأيَاطِلْ

ويقول خداش بن زهير[٩٤]:

جلبنا الخيل ساهمة إليهم عوابِسَ يدَّرِعْنَ النقْع قودا

ومن الصور التي اهتم شاعر الجاهلية إبرازها وجلاءها في المعركة صورة المقاتل التي تشبه صورة الأسد، يقول زهير بن أبي سلمى[٩٥]:

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا ما كذَّبَ اللّيثُ عن أقرانِه صَدَقَا

ويقول الأعشى[٩٦]:

فَغَدَوْنَا عليهمُ بَكْرَ الوِرْ دِكما توردُ النَّضِيجَ الهِيامَا
برجالٍ كالأُسْدِ حَرَّبَهَا الزجْرُ وخيلٍ ما تُنْكِرُ الاقداما

ويقول ودّاك بن ثُميل[٩٧]:

رُوَيْدَ بني شَيْبَانَ بعض وعيدِكُم تُلاقُوا غداً خيلي على سَفْوَانِ
عليها الكُمَأة الغُرُّ مِنْ آلِ مازنٍ لُيُوثُ طِعَانٍ عند كُلّ طِعَانِ

ويقول عوف بن عطية مفتخراً على أعدائه[٩٨]:

وكُنَّا بها أسَداً زائراً أبَى لا يُحَاوِلُ إلا سِوَارَا

ووازن الشاعر الجاهلي بين صورة المقاتل في المعركة وصورة الأسد في المأسدة، يقول الأفوه الأودي[٩٩]:

فلما أن رأونا في وغاها كآساد العرينة والحجيب

وكان الشاعر الجاهلي حريصاً أن تكون صورة المقاتل تشبه صورة ليث فاتك مجرّب يقول لبيد بن ربيعة[١٠٠]:

ولن يعدموا في الحرب ليثاً مجرباً وذا نزل عند الرّزيّة باذِلا

والتفت الشاعر أبو قيس صيفي بن الأسلت إلى صورة جديدة تلمح من خلالها الأعداء بأقنعة الأسد، وقوم الشاعر لا يعبأون بهم فيذودونهم بالسيوف[١٠١]:

نذودهم عنا بمستنة ذات عرانين ودُفَّاع
كأنهم أُسْدٌ لدى أشبل ينهتن في غيل وإجزاع

أما عوف بن عطية فقد قلب الصورة وجعل قومه يلبسون للأعداء جلود الأسد والنُمْر[١٠٢]:

وَنَلْبَسُ للعَدُوّ جُلُودَ أُسْدٍ إذا نَلْقَاهُمُ وَجُلُودَ نُمْرِ

وإذا ولّد مالك بن عجلان صورتين فنيتين عندما شبّه قومه المقاتلين وحركتهم في أرض المعركة، نراه يغلّب صورة الأُسد على صورة الجمال[١٠٣]:

يمشون في البيض والدروع كما تمشي جمالٌ مصاعبٌ قطف

كما تمشي الأسود في رهج الموت إليه وكلهم لُهُفُ

اما أحيحة بن الجلاح فقد أنجز نصاً قابل فيه بين فتيان الحرب وأُسد الغابة، فشبه الفتيان بالأُسد والحرب بالغاب[١٠٤]:

ولقد وجدت بجانب الضحيان شبانا مهابة
فتيان حرب في الحديد وشامرين كأسد غابة
هُمْ نكّبوكَ عن الطريق فبتَّ تركب كلّ لابة
أعصيمُ لا تجزع فان الحرب ليست بالدعابة.

ويشبه خفاف بن ندبة نفسه بأسد في عرينه، وقد تأهب للصيد وطريدته الرجال، والعلامة بقايا لحومهم ودمائهم على أشداقه[١٠٥]:

إن تلقني تلق ليثاً في عرينته من أسد خفان في أرساغه فدع
لا يبرح الدهر صيدٌ قد تقنصه من الرجال على أشداقه القمع

وتنتهي المعركة عند الشاعر الجاهلي بصورة انتشار أجساد الجرحى وجثث القتلى في ساحة المعركة، وتعثر خيل المنتصرين فيها، وتلطخها بدمائها، وبالأسر والفرار، يقول عنترة[١٠٦]:

حتى رأيتُ الدُّهْمَ بعد سوادِها حُمْر الجلودِ خُضِبْنَ من جرحاها
يَعْثُرْنَ في نَقْعِ النَّجِيع جَوَافِلاً وَبَطَأنَ مِنْ حَمْيِ الوَغَى صَرْعاها

ويقول المرقش الأكبر[١٠٧]:

فأقبلْنَهُمْ ثُمَ ادْبَرنَهُمْ فأصْدَرْنَهُمْ قبل حين الصَّدَرْ

فيا رُبَّ شِلْو تَخَطْرَفْنَهُ كريم لدى مَزْحَفٍ أو مكَرّ
وآخَرَ شاص ترى جلْدَهُ كَقِشْرِ القتادَةِ غِبَّ المَطَرْ
وكائِنْ بِحُمْرَانَ مِنْ مُزْعَف ومن رجُل وجهُهُ قد عُفِرْ

ويقول عامر بن الطفيل[١٠٨]:

– فأما فريقٌ بالمَصَامَةِ مِنْهُمُ ففرّوا وأُخرى قد أُبِيرَتْ جُدُودُهَا
– أسرنا حاجبا فثوى أسيراً ولم نتركْ لأسْرَتِهِ سَوَامَا
وجَمْع بني تميم قَدْ تَرَكْنَا نُبينُ سَوَاعِداً مِنْهُمْ وَهَامَا

ويقول عبيد بن الأبرص[١٠٩]:

ونحن قَتَلْنَا الأجْدَلَيْن ومالِكا أعزّهُما فَقْداً عليكَ وهالِكا
ونحن جعلنا الرُمْحَ قِرْنا لِنَحْرِه فَقَطَّرَهُ كأنّما كان وارِكا

البطل:

عرف الجاهليون عامة والشعراء خاصة صفات البطل في الجاهلية، فهو ذلك الشخص الذي كانوا يعدونه ذخيرة لوقت الخطر، وأهلاً للاعتماد عليه في القتال، وقد تصوره شاعر الجاهلية "الرجل الكامل" أو الشخص المثالي الحقيقي[١١٠].

والذي يهمّ البحث في هذا المقام أن يؤلف صورة متكاملة الجوانب لبطل الحرب في الجاهلية، راسماً فيها صفات المحارب الأمثل، وكيفية أدائه، وما جبل عليه من سلوك أخلاقي.

أ– صفات البطل وخصاله الحربية:

إن أول ما يطالعنا من صفات الفارس الجاهلي الحربية صفة الحذر والاستعداد للضرورة الدفاعية:

إنّي أُحاذِرُ أن تقولَ ظعينتي هذا غُبَارٌ ساطعٌ فتلبَّبِ[١١١]

وإنّ الذي يجعل البطل بطلاً إلى جانب صفة دوام التأهب للحرب وانتقاء أجود الخيل والسلاح لها وتعهده حزماً واحترازاً حتى لا يفاجأ ويؤخذ على غرّة – صفة الشجاعة ورباطة الجأش:

فلم أنْكُلْ ولم أجْبُنْ ولكنْ يَمَمْتُ بها أبا صَخْرِ بنَ عَمْرو
شككتُ مَجَامِعَ الأوصالِ منه بنافذةٍ على دَهَش وذُعْرِ
تركتُ الرُمْحَ يَبْرُقُ في صَلاه كأَن سِنَانَهُ خُرْطُومُ نَسْر
فإنْ يَبْرأ فلم أَنْفِثْ عليه وإنْ يَهْلِكْ فذلك كان قَدْرِيَ[١١٢]
– صلباً إذا خارَ الرجا ل أبلّ ممتنعَ الشكائِمْ[١١٣]

وصفة الصبر على مكاره الحرب وتوطيد النفس على النصر:

– وفي الحرب منه بلاءٌ إذا عَوَانٌ توقَّدَ أجْذَالُها
وصبرٌ على الدَّهْر في رُزْئِهِ وإعطاءُ كفٍ وإجْزَالُهَا[١١٤]
– فَصَبَرْت عارفةً لذلك حُرَّةً ترسُو إذا نفسُ الجبانِ تطلَّعُ[١١٥]

وصفة الإقدام والجرأة والمبادرة بالهجوم والمبادرة بالضرب، والملحوظ أن هذه الخصال الحربية تكتسب اكتساباً، يكتسبها المحارب من طول تمرّسه بالحرب وبلائه فيها:

– إنْ تسأَلي الخيلَ عَنّا في مَوَاقفها يَوْمَ المُشَقَّرِ والأبطالُ في زَعَجِ

تُخْبِرْكَ أنّي أُعِيدُ الكَرَّ بَيْنَهُمَ إذا القنا حُطِمَتْ في يَوْمِ مُعْتَلَجِ[١١٦]
وكان أبي عُتَيْبَةُ سَمْهَرِيّاً فلا تَلْقَاهُ يدَّخِرُ النَّصيبَا
ضَرُوباً للكميَّ إذا اشْمَعَلَّتْ عوانُ الحربِ لا وَرَعاً هَيُوبَا[١١٧]
وقد غدوتُ على قِرْني يُشَيّعني ماضٍ أخُو ثقةٍ بالخيرِ مَوْسُومُ[١١٨]

ومما نلحظه من صفات أن الفارس الجاهلي أوقف حياته على الحرب.

وأنا ابن حرب لا أزالُ أشبّها سَعْراً وأُوقدُها إذا لم تُوقَدِ[١١٩]
لقد تعلمُ الحربُ أنّي ابنُها وأني الهمامُ بها المُعْلَمُ[١٢٠]
خُلِقْتُ للحرب أحميها إذا بردتْ وأصطلي بلظاها حيثُ تَحْتَرِقُ[١٢١]
والخيل تعلمُ والفوارسُ أنني شيخُ الحُروبِ وكهلُها وفتاها[١٢٢]

ب- أداء البطل:

توافرت للفارس الجاهلي عناصر تتصل بجودة أداء الفعل القتالي وكماله، وأهم هذه العناصر السرعة والدقة والقوة، وقد كان ناجحاً إذْ عبّر عن سرعة إصابته الخصوم بأنه "يأخذهم" أخذاً:

كم فارس بين الصفوف أخذتُه والخُيل تعثر بالقنا المتكسِّرِ[١٢٣]

أو "يخطف" الفرسان خطفاً:

ولكم خَطِفْتُ مُدَّرعاً من سَرْجِهِ في الحرب وهو بنفسه لم يَشْعُرِ[١٢٤]

ويبدو من شعر الفارس الجاهلي حرصه على أن تكون طعنته وضربته دقيقة صائبة لمقاتل العدو:

وَشَفَيْتُ نفس من ذَوي يَمَن بالطَّعْنِ في اللَّبَّاتِ والضَّرْبِ[١٢٥]

والحكمة في ذلك لتكون قاضية، ولتدلل على أنها ضربة خبير بالمعارك يسدّدها إلى حيث ينبغي حتى يضمن لنفسه الغلب السريع، وأكثر مضارب العدو ومطاعنه ورود في الشعر الجاهلي عامة وشعر الفارس خاصة، الأحشاء ومجتمع العظام (المفاصل) والكُلَى، والنحور والتراقي:

تمطَّتْ بحمران المَنِيَّةُ بَعْدَمَا حَشَاهُ سِنانٌ من شَراعَةِ أزْرَقُ[١٢٦]
شككت مَجَامِعَ الأوصالِ مِنْهُ بنافِذَةٍ على دَهَشٍ وَذَعْرِ[١٢٧]
ليس بيني وبين قيسٍ عِتابٌ غَيْرُ طعنِ الكُلَى وَضَرْبِ الرّقابِ[١٢٨]
وإن طَعَنَ الفوارسُ صَدْرَ قومٍ فطعني في النّحور وفي التراقي[١٢٩]

ومع الدقة في الطعن يبرز عند الشاعر الفارس معنى العمق أيضاً:

وما أدْري ما اثوابُه.. غير أنني غَبَأْتُ له بالرُمْحِ مُسْتَمْكِناً يدي[١٣٠]
ولقد نكبْتُ بني حُرَيْفَةَ نَكْبَةً لمّا طَعَنْتُ صَميمَ قلب الأخْيلِ[١٣١]

ومن مظاهر حسن الأداء في حروب الفارس الجاهلي القوّة، ويأتي تعبيره عنها إمّا صور الضرب العنيف:

وأضرب بالسّيف يوم الوغى أقُدُّ بِهِ خَلَقَ المُبْرَمِ[١٣٢]
نَفْلي بحَدّ الصَّفيح هامَهُمُ وَفَلْيُنا هامَهُمْ بها عُنُفُ[١٣٣]
وأضْرِبُ القَوْنَسَ يَوْمَ الوَغَي بالسّيْفِ لم يَقْصُرْ به باعي[١٣٤]

أو بأساليب إيحائية تتصدرها صور الدماء تتدفّق فائرة فائضة:

وقد أتْرُكُ القِرنَ الكَمِيَّ بِصَدْرِهِ مَشَلْشَلَةٌ فَوْقَ النّطِاقِ نَفُوحُ
دفُوعٌ لأطْرَافِ الأنامِلِ ثرَّةٌ لها بَعْدَ إنْزَافِ العَبيطِ نَسِيحُ[١٣٥]
يهزُّون سُمْراً مِن رماحِ رُدَيْنَةٍ إذا حُرِّكَتْ بَضَّتْ عوامِلُها دَمَا[١٣٦]
يُفيضُ سِناني دماءَ النحور ورمحي يشُكُّ مع الدِرع قلبَهْ[١٣٧]

والبطل الجاهلي إذْ تكتمل له أسباب البطش والتفوّق على عدوه، ويصبح مهاباً مخوفاً جانبه، نراه يذكر أعداءه تارة في حال الجمع وتارة أخرى في حال الافراد، فإن كانوا جمعاً فلهم منه أن يفرّق شملهم ويقتلهم ويبيدهم:

وَطَاعَنْتُ جَمْعَ القَوْم حتى رأيْتُهُمْ على قُلُصٍ تعدُو بهمْ وبكارِ[١٣٨]
ونحن نَفَيْنَا مَذْحِجاً عن بلادِها تُقْتَّلُ حتى عادَ فلّا شَدِيدُهَا
فأمّا فريقٌ بالمَصَامَةِ منهُمُ ففرّوا وأُخرى قد أُبيرَتْ جُدودُهَا[١٣٩]
لَقَيناهُمْ بيضٍ مُرْهَفَاتٍ نُقَتِّلُهُمْ بها حتى أُبيدُوا[١٤٠]
هَلّا سألْتَ جُمُوعَ كِنْدَةَ إذْ تَوَلَّوْا: أيْنَ أيْنَا
أيامَ نضربُ هامَهُمْ بِبَوَاتِرٍ حتّى انحَنَيْنَا[١٤١]

وإن كان العدو فرداً، فغالباً ما يتخيره من الأشراف والبواسل والكماة، ويذكر اختلاءه به في موقع بارز من مشهد المعركة، ويأتي حديثه عنه ذاكراً بطشه به بصورة قوية وسريعة يحدوه الثقة في صنيعه:

شككتُ به مَجَامِعَ رُحْبَيَيْهِ فصار رداؤهُ مِنْهُ طَمِيلُ[١٤٢]
غادرتُه للجنب غَيْر موسَّدٍ مُتَثَنّيَ الأوصالِ عند مجالِ[١٤٣]

ويميل أحياناً إلى تفصيل فعله بمن تخيّره واختلى به من الأبطال، مصوراً ذلك تصويراً دامياً مرعباً:

وَقِرْنٍ تركْتُ الكيرَ تَحْجِلُ حَوْلَهُ عليه نجيعٌ من دمِ الجوفِ جاسِدِ
حَشَاهُ السِنّانُ ثُمَّ خَرَّ لأنفِهِ كما قَطَّرَ الكَعْبَ المؤرِّبَ ناهِدُ(١٤٤)
وحليل غانيةٍ تركْتُ مُجَدَّلاً تمكو فريصتُهُ كَشِدْقِ الأَعْلَمِ
سَبَقَتْ يداي له بعاجل طعنةٍ ورشاشِ نافذةٍ كلونِ العَنْدمِ

إلى قوله:

فطعَنْتُهُ بالرُّمْحِ ثُمَّ عَلَوْتُهُ بِمُهَنَّدٍ صافي الحديدةِ مِخْذَمِ
عهدي به مَدَّ النهار كأنّمَا خُضِبَ البَنَانُ ورأسُهُ بالعِظْلَمِ(١٤٥)

ج- أخلاق البطل العسكرية:

ينضاف إلى استعداد فارس الجاهلية الفطري للحرب، ومهارته فيها، وتفوقه – أخلاق يمكن نعتها بأخلاق الحرب، ومنها سرعة تلبية النداء إلى الحرب، لنصرة القوم وشدّ أزرهم:

أَلَمْ تَرَ قومي إذْ دَعَاهُم أجَابُوا وإن يَرْكَبْ إلى الحرب يَرْكَبُوا(١٤٦)
إذا ما مُنادي الحيِّ نادى أجَبْتُهُ وخيلُ المنايا بالجماجم تَعْثُرُ(١٤٧)

وإغاثتهم في المواقف الحربية الحرجة:

فَطِرْنَا عَجَالَى للصّريخ ولا ترى لَنَا نَعَماً مِنْ حيثُ يَفْزَعُ شلَّتِ(١٤٨)
كُنَا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ كان الصُّرَاخُ له قَرْعَ الظَّنَابيبِ(١٤٩)

ونجده المكروب المشرف على الموت:

ومكروبٍ كشفتُ الكرب عنه بضربة فَيْصَلٍ لمّا دَعَاني(١٥٠)

دعاني سُمَيْطٌ يَوْمَ ذلك دَعْوَةً فَنَهْنَهْتُ عنه والأسِنَّةُ شُرَّعُ
ولولا دفاعي عن سُمَيْطٍ وَكَرَّتِي لَعَالَجَ قِدَّاً قَفْلُهُ يَتَقَعْقَعُ(١٥١)

كما أُثر عن البطل ترفعه عن الغدر:

فأبْلِغْ إنْ عَرَضْتَ جميعَ سَعْدٍ فبيتوا لَنْ نَهِيجَكُمُ نِيَامَا(١٥٢)

ورفضه الظلم:

أَلَمْ تَعْلَمِي أني إذا الإلْفُ قادَني إلى الجَوْرِ لا أنْقَادُ والإلْفُ جائِرُ(١٥٣)

وخبرته بخطط الحرب وجوانبها الاستراتيجية والتقنية – كما يقال اليوم– عارفاً بأجوائها النفسية، وأصوب مثال على ذلك عنترة بن شداد، إذْ ينظم جيشه، ويصيح فيه لتعبئته ودفعه للهجوم، بعد لحظة ضعف وإحجام وتردد واختياره الطريق إلى قائد جيش العدو وأبرز أبطاله، بادئاً بالأضعف من رجاله:

فأتيتها والشمس في كبد السّما والقوْم بين مُقدَّم ومؤخِّرِ
ضجّوا فصحتُ عليهم فتجمّعُوا ودنا إليَّ خميسُ ذاك العسكَرِ
فشككتُ هذا بالقنا وعلوْتُ ذا مع ذاك بالذَّكر الحُسام الأبْتَرِ
وقصدتُ قائدهم قطعتُ وريدَه وقتلتُ منهم كُلَّ قَرْمٍ أكبرِ(١٥٤)

وأورد أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه خبراً يؤكد معرفة عنترة بالترتيب الدقيق لأفعاله في أرض المعركة، وامتلاكه خبرة عسكرية تنمّ عن بطل، فإذا قيل له "أنت أشجع العرب وأشدّها؟ قال" لا، قيل فبم شاع لك هذا في الناس؟ قال: كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً، ولا أدخل إلّا موضعاً أرى لي

منه مخرجاً، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله..."[١٥٥].

العدو:

للعدو في الشعر الجاهلي صورتان متقابلتان تتناسب أولاهما مع ما قبل المعركة، وثانيتهما مع ما بعدها.

أ. قدوم العدو:

ورد غير صورة في الشعر الجاهلي لجيش العدو وهو يتجه إلى أرض المعركة لمقابلة الخصم، ومن هذه الصور:

صورة السحاب ذي القرّ والبرد:

فجاءوا عارضاً برداً وجئنا كَسَيْلِ العِرْضِ ضاق به الطريقُ[١٥٦]

وصورة الغال لكثرته:

فانقضَ مثلَ الصقرِ يَقْدُمُهُ جَيْشٌ كَغُلَّانِ الشُّرَيْفِ لِهَمْ[١٥٧]

وصورة النار المشتعلة لشدّته، وصورة الطير لسرعته:

وَمُشْعَلَةٍ كالطَّيْرِ نَهْنَهْتُ وِرْدَهَا إذا ما الجبان يدَّعي وهو عاندُ[١٥٨]

وصورة المطر القويّ المفاجئ:

سَلي فَزَارَةَ عن فعلي وَقَدْ نَفَرَت في جَحْفَلٍ حافلٍ كالعارض الهَطِلِ[١٥٩]

وصورة السيل الجارف، كناية عن غزارة الجيش:

إذا ما مَشَوْا في السَّابِغَاتِ حَسِبْتَهُمْ سُيُولاً وقد جاشَت بهنَّ الأباطحُ[١٦٠]

والشاعر الجاهلي حريص التأكيد على كثرة العدوّ في حال هجومه الجماعي، أمّا في وصف العدو الفرد فإن الصور تتنوّع كثيراً، ولكنها تلتقي في صورة الفارس الكامل، ولهذا الفارس مظاهر ثلاث؛ مظهر يتعلق بجسمه، ومظهر يتعلق بمكانته الاجتماعية، ومظهر يتصل بسلاحه وكفاءَته الحربية.

فالخصم بدين ضخم قويّ:

فَلَرُب أبْلَجَ مثل بعلك بادنٍ ضخْمٍ على ظهر الجواد مهيَّلِ[١٦١]
يا رُبَّ قِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً ضخم الدَّسيعةِ رأس حَيٍّ جَحْفَلِ[١٦٢]
وَلَـرُبَّ سَيّد مَعْشَرٍ ضخمِ الدّسيعَةِ قَدْ رَمَيْنَا[١٦٣]

والخصم ذو شرف ورفعة، وذو مكانة في قومه، غنيّ عليه سيماء الترف ويلبس مصبوغ النعال، وهو جواد في الأزمات متلاف:

وأسْمَرَ قَدْ نَضَيْتُ لذي سَناءٍ يرى مني مُخَالَطَةَ اليقين[١٦٤]
رَبِذٍ يَدَاه بالقداح إذا شتا هتّاك غاياتِ التجار مُلَوَّمِ
بطل كأنَّ ثيابه في سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ السَّبْتِ ليس بِتوْأَمِ[١٦٥]

وتام السلاح فهو كميّ.

لألتَمِسَنْ منكُمْ كَمِيّاً بِضَرْبَةٍ إذا ما أنا شَاهَدْتُ يومَ ذِمَارِ[١٦٦]
وفيهم كلُّ جَبّارٍ عنيدٍ شديد البأس مفتولُ السِّبال[١٦٧]

فالخصم محارب شجاع عنيد، وشديد المراس، ومن اللافت للنظر أن الشاعر الفارس يصور بطله أكمل تصوير ثم يصرعه أكمل صرع، يستهدف من ذلك إضفاء قيمة على انتصاره على الخصم الذي يعدّ أقوى الأقوياء وأشجع الشجعان.

ب. انهزام العدو:

بقدر ما تبدو صورة العدو إيجابية في بداية المعركة، تبدو سلبية جداً في نهايتها، وأولى صور الانهزام الإدبار والفرار من ساحة القتال:

لَقَيْنَا جَمْعَهُمْ صبحاً فكانوا كمثل الضأنِ عاداهُنَّ سِيدُ[١٦٨]
ونحنُ صَبَحْنَا عامِراً يَوْمَ أقبلوا سيوفاً عَلَيْهِنَّ النَّجار بَوَاتِكَا
عطفْنا لهمْ عَطْفَ الضروسِ فأدبروا سِراعاً وقد بَلَّ النَّجيعُ السنابكا[١٦٩]
تركوا اللَّبوسَ مع السلاح هزيمةً يَجْرُون في عرض الفَلَاةِ المُقْفِرِ[١٧٠]

وإذْ يدبر الأعداء يمعن الغالبون في طرادهم وضرب مؤخرتهم حتى لا يعودوا، ويلجون ديارهم ويقيمون فيها إمعاناً في إذلالهم:

فإن تُدْبِروا يأخذْنَكُمْ في ظهوركم ==========[١٧١]
إذْ أدبروا فعملنا في ظُهورهمُ ما تعمل النارُ في الحَلْفَى فتحتَرقُ[١٧٢]
قَتَلْتُهُمْ وألْجتُ بَلْدَتَهُمْ وأقمتُ حَوْلاً كاملاً أسْبِي[١٧٣]

ويصور الشاعر الجاهلي ساحة المعركة بعد فرار الأعداء، ذاكراً صور الجرحى والأسرى والقتلى في تعابير تتكرر فيها أفعال بعينها هي "تركت" و"غادرت" في جميع خواتم معاركه تقريباً، فمن صورة مفردة لعَدوّ مغرّز جسمه بالرماح.

تركْتُ الرُمْحَ يَبْرُقُ في صَلاَهُ كأنَّ سِنَانَهُ خُرْطُومُ نَسْرِ[١٧٤]

وَغَادَرْنَ نَضْلَةَ في مَعْرَكٍ يَجُرُّ الأسِنَّةَ كالمُحْتَطِبْ[١٧٥]

إلى صورة ثانية مفردة لعدو جريح أسير يعالج جرحاً في ذراعيه:

وقاظَ ابن حِصْنٍ عانياً في بيوتنا يُعَالِجُ قِدّاً في ذِراعَيْهِ مُصْحَبَا[١٧٦]
يُحَرِّكُ رجله رُعبا وفيه سنانُ الرّمح يلمعُ كالشهّاب[١٧٧]

إلى صورة ثالثة مركبة تجمع بين عنصرين فأكثر من الأسرى والجرحى والقتلى:

فَهُمُ ثلاثةُ أفرقاءَ: فَسَابِحٌ في الرّمْحِ يَعْثُرُ في النَّجيعِ الأحْمَرِ
ومُكَبَّلٌ يُفْدَى بوَافِرِ مالهِ إنْ كان صاحبَ هَجْمَةٍ أو أَيْصَرِ
أو بَيْنَ مَمْنُونٍ عليه وقومه إنْ كان شاكرهَا وإنْ لم يَشْكُرِ[١٧٨]
فأقْرَرْتُ عيني حين ظَلُّوا كأنَّهم ببطن الإيادِ خُشْبُ أثْلٍ مُسَنَّدِ
صريعٌ عليه الطيرُ تَنْتِخُ عَيْنَهُ وآخرُ مكبولٌ يميلُ مُقَيَّدُ[١٧٩]
فأبلغ إنْ عَرَضْتَ بني كِلاب فإنا نحنُ أقعَصْنَا بَجيرَا
وَغَادرْنَا بُرَيْكيْكُمْ جميعاً نُعَشيَّ مِنْ لُحُومِهِمَا النُّسُورا
وَضرَّجْنا عُبيْدَة بالعَوالي فأصْبَح مُوَثَّقاً فينا أسيرا[١٨٠]

ومن عادة الشاعر الجاهلي الفارس أن يتغنى أواخر المعارك بأسماء من يقتل من الأبطال والسادة:

فَغُودِرَ مِنْهُمُ عَمْروٌ وعَمْرٌو وأسْودُ والكُمَاةُ بها شُهُودٌ
وَعَبْدُالله غُودِرَ وابنُ بِشْرٍ وعتابٌ وَمُرَّةُ والوليدُ
لقيناهُمْ ببيضٍ مُرْهَفَاتٍ نُقَتِّلُهُمْ بها حتّى أُبِيدُوا[١٨١]

وقتلتُ فارسَهُمْ ربيعةَ عُنْوَةً والهَيْذُبَانَ وجابرَ بن مهلهل
وابنيْ ربيعةَ والحريش ومالكاً والزّبرقان غدا طريح الجندل[١٨٢]

وتحتل مكاناً بارزاً من مشهد انتشار جثث القتلى والجرحى – صورة الجوارح والضّواري:

تركْنا العُرْجَ عاكفةً عليهم وللغِرْبَانِ من شَبَعٍ نَغِيقُ[١٨٣]
لعمري لأشْبَعْنَا ضِبَاعَ عُنَيْزَةٍ إلى الحَوْلِ منها والنُّسُورَ القَشاعِمَا[١٨٤]
تركتُ الطيرَ عاكفةً عليه كما تَرْدِي إلى العُرْسِ الغواني[١٨٥]

وإذا فرّق شمل الأعداء وذهبوا بين هارب وأسير وجريح وقتيل، برزت آخر صور الإذلال والإهانة، وهي صورة نسائهم بواكي مسبيات:

إذا جاء سِرْبٌ من نساءٍ يَعُدْنَهُ تَبَادَرْنَ شَتّى كُلُّهُنَ تَنُوحُ[١٨٦]
إذا ما عادَةُ منها نساءٌ سَفَحْنَ الدَّمْعَ مِنْ بَعْدِ الرّنين[١٨٧]
وتركتُ نِسْوَتَهُ لهُنَّ تَفَجُّعٌ يَنْدُبْنَهُ أُصُلاً بِنَوْحٍ مُعْوِلِ[١٨٨]
وأرْدَفْنَا نِساءَهُم وجِئْنا وَقَدْ دَمِيَتْ من الخمش الخُدودُ[١٨٩]

وهكذا تنتهي المعارك بقلب صورة العدو، فبقدر ما يكون قدومه هائلاً مرعباً، تكون نهايته سعيدة مفرحة.

وجملة القول أن صورة الحرب عند الشاعر الجاهلي الفارس ثرّة غزيرة المادّة، متنوعة المظاهر، متعدّدة الأبعاد، قوية مرعبة أيّان دارت رحاها، وحيثما وصفت.

الهوامش

(١) ابن خلدون، ج٢، ص٨٢٣.

(٢) ابن منظور، مادة "حرب".

(٣) عبد الرحمن، ص٥.

(٤) ابن العبد، ص٦٤.

(٥) التبريزي، شرح القصائد العشر، ص٣٣١، ٣٣٢.

(٦) ابن الأبرص، ص١٣١.

(٧) الأصمعي، الأصمعية رقم ١٢.

(٨) ابن شدّاد، ص١٣١.

(٩) المعيني، ص٣٦٩.

(١٠) ابن شدّاد، ص١٥٥

(١١) الضّبي، المفضلية رقم ١٢.

(١٢) الأصمعي، رقم ٥١.

(١٣) المعيني، ص٣٦٩.

(١٤) الحادرة، ص٥١-٥٣.

(١٥) الضبي، رقم ٢٢.

(١٦) الضبي، رقم ٥٤.

(١٧) ابن أبي سلمى، ص٣٠٩.

(١٨) ابن الأبرص، ص٢٥.

(١٩) ابن شدّاد، ص٣٥.

(٢٠) البغدادي، ج٢، ص٤١٣.

(٢١) ابن شدّاد، ص٢٠.

(٢٢) الضبي، رقم ٧.

(٢٣) الضبي، رقم ٤١.

(٢٤) الضبي، رقم ٧٩.

(٢٥) ابن أبي سلمى، ص١٢٨، ص١٢٩.

(٢٦) ابن الكلبي، ص٦٢.

(٢٧) الضبي، رقم ٥٥.

(٢٨) المعيني، ص١٧٤.

(٢٩) ابن شدّاد، ص١٩٣.

(٣٠) الغنوي، ص٦.

(٣١) ابن عبد ربه، ج٣، ص٧٨.

(٣٢) امرؤ القيس، ص٨٥.

(٣٣) ابن الطفيل، ص٥٦.

(٣٤) البحتري، ص٥٢.

(٣٥) ابن الطفيل، ص٨٢.

(٣٦) ابن الطفيل، ص٣٢.

(٣٧) ابن الطفيل، ص٣٧.

(٣٨) ابن شدّاد، ص٥٤.

(٣٩) ابن الطفيل، ص٦١، ص٦٢.

(٤٠) ابن شدّاد، ص١٥٣، ص١٥٤.

(٤١) شيخو، ص٢٦٤.

(٤٢) الضبي، رقم ٣٩.

(٤٣) هذيل، د. ت.

(٤٤) شيخو، ص٢٦٤.

(٤٥) ابن الطفيل، ص١٠٢.

(٤٦) ابن الطفيل، ص٢٧، ص٢٨.

(٤٧) القلقشندي، ج١١، ص١٣٩.

(٤٨) ابن الأبرص، ص٢٣.

(٤٩) الأعشى، ص١٧٧.

(٥٠) ابن الطفيل، ص٤٩.

(٥١) ابن شداد، ص٩

(٥٢) ابن شداد، ص٢٣

(٥٣) ابن شداد، ص١١٤.

(٥٤) ابن شداد، ص١١٤.

(٥٥) المعيني، ص٢٦٣، ص٢٦٤.

(٥٦) ابن شداد، ص١٠٣.

(٥٧) التبريزي، ص٣٦١.

(٥٨) الضبي، رقم ١٢.

(٥٩) الجندي، ص٧٤ وما بعدها.

(٦٠) المرقش الأكبر، المفضلية، رقم ٥٤، ابن الأسلت، المفضلية، رقم ٧٥، ابن أبي خازم، المفضلية رقم ٩٧، ورقم ٩٨، ابن عطية، المفضلية رقم ١٢٤، ابن الأبرص، ص٢٣، ص٣٢-٣٤، ص٤٩-٥٠، الأعشى، ص١٢٧-١٢٩، ابن الطفيل، ص١٠٧-١١٤.

(٦١) اليعلاوي، عدد ٢٠

(٦٢) ابن الطفيل، ص٤٢، ص٦٤.

(٦٣) الضبي، رقم ١١٩

(٦٤) ابن الأبرص، ص٧

(٦٥) ابن شداد، ص١٤.

(٦٦) ابن منظور، مادة "عرك"

(٦٧) ابن الطفيل، ص٣٧، ص٧٧، ص١٢٠

(٦٨) ياقوت الحموي، ج٤، ص١٨١.

(٦٩) الآمدي، ص١٣٩

(٧٠) الضبي، رقم ٩٤

(٧١) الضبي، رقم ٥٤

(٧٢) المعيني، ص٤٢

(٧٣) ابن الطفيل، ص٦٠ ص١١٠

(٧٤) الضبي، رقم ٩٩

(٧٥) الضبي، رقم ٨٨

(٧٦) ابن شداد، ص٥٧

(٧٧) ابن الطفيل، ص٩٧

(٧٨) الأصمعي، رقم ٦٩، ورقم ٧٠، الضبي رقم ٩٣، ورقم ٩٩، ورقم ١١٣، وابن الطفيل، ص٤٢ وما بعدها، ص٤٩، ص٩٤ وما بعدها، ص١٠٢، ص١٤٨ وما بعدها، المعيني، ص٩٧، ص٩٨، ص١٧٧، ص٢٦٤-٢٦٥، ص٤٠٦-٤٠٧، ص٤٢٦، ابن الأبرص، ص٣-٧، ص٩٣-٩٤، ص١٣٦-١٣٨.

(٧٩) النحاس، ص٦٣٢

(٨٠) ابن أبي سلمى، ص١٩

(٨١) ابن عبد ربه، ج٦، ص٦٥

(٨٢) ابن شداد، ص٤٤

(٨٣) التبريزي، شرح ديوان الحماسة، ج١، ص١٦

(٨٤) الضبي، رقم ٣٨

(٨٥) ابن شداد، ص٥٧

(٨٦) ابن أبي سلمى، ص١٠٣، ص١٠٥

(٨٧) ابن أبي سلمى، ص١٩

(٨٨) الأعشى، ص٢١٧

(٨٩) ابن شداد، ص١٦

(٩٠) ابن الطفيل، ص٣٤

(٩١) ابن الطفيل، ص١٢٠

(٩٢) الضبي، رقم ٩٩

(٩٣) الأعشى، ص٣٩٩

(٩٤) الأصفهاني، ج٢٢، ص٧٠.

(٩٥) ابن أبي سلمى، ص٥٤

(٩٦) الأعشى، ص٢٩٩

(٩٧) أبو تمام، ديوان الحماسة، ج١، ص٥٧

(٩٨) الضبي، رقم ١٢٤

(٩٩) الأودي، ص٩

(١٠٠) ابن ربيعة، ص٢٥١

(١٠١) ابن الأسلت، ص٨٠

(١٠٢) الضبي، رقم ٩٥

(١٠٣) الأصفهاني، ج٣، ص٢١

(١٠٤) ابن الجلاح، ص٦٣

(١٠٥) الأصفهاني، ج١٦، ص١٤٣

(١٠٦) ابن شداد، ص١٨٥

(١٠٧) الضبي، رقم ٥٢

(١٠٨) ابن الطفيل، ص٤٦، ص١١٣

(١٠٩) ابن الأبرص، ص٩٣

(١١٠) الجندي ص٩٠

(١١١) ابن شداد، ص٢٠

(١١٢) الضبي، رقم ١٣، الشعر لرجل من عبد القيس

(١١٣) القالي، ج٢، ص٣١١، الشعر للزبرقان بن بدر

(١١٤) الأعشى، ص٢١٧

(١١٥) ابن شداد، ١٠٤

(١١٦) ابن الطفيل، ص٣٨

(١١٧) ابن عبد ربه، ج٥، ص٢٥٠، الشعر لآمنة بنت عتيبة

(١١٨) الضبي، رقم ١٢٠، الشعر لعلقمة بن عبدة

(١١٩) ابن الطفيل، ص٥٧

(١٢٠) ابن الطفيل، ص١١٩

(١٢١) ابن شداد، ص١١١

(١٢٢) ابن شداد، ص١٨٨

(١٢٣) ابن شداد، ص٨٧

(١٢٤) ابن شداد، ص٨٧

(١٢٥) ياقوت الحموي، ج١، ص٢١٩، الشعر للأضبط بن قريع

(١٢٦) المعيني، ٨٨، الشعر للأهتم بن سمي

(١٢٧) الضبي، رقم ١٣، الشعر لرجل من عبد القيس

(١٢٨) أبو تمام، الوحشيات، ص٤٢، الشعر لعمرو بن الأهتم.

(١٢٩) ابن شداد، ص١١٤.

(١٣٠) المعيني، ص٤٦٥، الشعر الطريف بن تميم.

(١٣١) المعيني، ص٤٦٥، الشعر لطريف بن تميم.

(١٣١) ابن شداد، ص١٣٥

(١٣٢) ابن الطفيل، ص١٢٠

(١٣٣) ابن الخطيم، ص١١٥

(١٣٤) ابن الأسلت، ص٧٩

(١٣٥) ابن الأبرص، ٣٢

(١٣٦) الضبي، رقم ١٢، الشعر للحصين بن الحمام

(١٣٧) ابن شداد، ص٨

(١٣٨) المعيني، ص٤٠٦، الشعر لحريث بن سلمة.

(١٣٩) ابن الطفيل، ص٤٦

(١٤٠) ابن الطفيل، ص٥٠

(١٤١) ابن الأبرص، ص١٣٦ وما بعدها

(١٤٢) ابن الطفيل، ص١٠٠

(١٤٣) الضبي، رقم ١٢٠، الشعر لعلقمة بن عبدة.

(١٤٤) المعيني، ص٢٧٧، الشعر لضمرة بن ضمرة

(١٤٥) ابن شداد، ص١٤٩، ص١٥١

(١٤٦) المعيني، ص٤٠٨، الشعر لحريث بن سلمة

(١٤٧) ابن شداد، ص٨٢

(١٤٨) المعيني، ص٢٣٤، الشعر لشميت بن زنباع

(١٤٩) الضبي، رقم ٢٢، الشعر لسلامة بن جندل

(١٥٠) ابن شداد، ص١٧٨

(١٥١) ابن الطفيل، ص٨٢

(١٥٢) ابن الطفيل، ص١١٥

(١٥٣) ابن الطفيل، ص٧٥

(١٥٤) ابن شداد، ص٨٧

(١٥٥) الأصفهاني، ج٨، ص٢٤١-٢٤٢.

(١٥٦) الأصمعي، رقم ٦٩، الشعر للمفضل النكري.

(١٥٧) الضبي، رقم ٥٤، الشعر للمرقش الأكبر.

(١٥٨) الضبي، رقم ٩٣، الشعر لضمرة بن ضمرة.

(١٥٩) ابن شداد، ص١٣٢

(١٦٠) ابن شداد، ص٤٣

(١٦١) ابن شداد، ص١٣٧

(١٦٢) ابن الطفيل، ص٩٢

(١٦٣) ابن الأبرص، ص١٣٨

(١٦٤) ابن الأبرص، ص١٣٤

(١٦٥) ابن شداد، ص١٥١، ص١٥٢

(١٦٦) المعيني، ص٤٠٧، الشعر لحريث بن سلمة.

(١٦٧) ابن شداد، ص١٣٧

(١٦٨) ابن الطفيل، ص٥٠

(١٦٩) ابن الأبرص، ص٩٣

(١٧٠) ابن شداد، ص٨٦

(١٧١) الأصمعي، رقم ٢٩، الشعر لدريد بن الصمة.

(١٧٢) ابن شداد، ص١١١

(١٧٣) ياقوت الحموي، ج١، ص٢١٩، الشعر للأضبط بن قريع.

(١٧٤) الضبي، رقم ١٣، الشعر لرجل من عبد القيس.

(١٧٥) ابن شداد، ص١٧

(١٧٦) الضبي، رقم ١١٣، الشعر لربيعة بن مقروم.

(١٧٧) ابن شداد، ص١٤

(١٧٨) الضبي، رقم ٩٤، الشعر لعوف بن عطية

(١٧٩) الأصمعي، رقم ٦٧، الشعر لمالك بن نويرة.

(١٨٠) ابن عبد ربه، ج٥، ص١٧٩، الشعر لعوراء السليطية.

(١٨١) ابن الطفيل، ص٥٠

(١٨٢) ابن شداد، ص١٣٥.

(١٨٣) الأصمعي، رقم ٦٩، الشعر للمفضل النكري.

(١٨٤) الضبي، رقم ٨٣، الشعر لعبد المسيح بن عسلة العبدي.

(١٨٥) ابن شداد، ص١٧٩

(١٨٦) ابن الأبرص، ص٣٣

(١٨٧) ابن الأبرص، ١٣٤

(١٨٨) ابن الطفيل، ص٩٢

(١٨٩) ابن الطفيل، ص٥١

المصادر والمراجع

- الآمدي، أبو القاسم الحسن بشر بن يحيى، المؤتلف والمختلف، تحقيق عبدالستار فراج، القاهرة، مطبعة الحلبي، ١٩٦١.
- ابن الأبرص، عبيد، الديوان، تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار، ط١، مصر، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٧.
- ابن الأسلت، أبو قيس صيفي، الديوان، جمع وتحقيق الدكتور حسن محمد باجودة، القاهرة، من منشورات مكتبة دار التراث، ١٩٧٣.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، ط٣، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨.
- الأصمعي، أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك، الأصمعيات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، د.ت.
- الأعشى، ميمون بن قيس، الديوان، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٢.
- امرؤ القيس، الديوان، بيروت، طبعة دار صادر، د. ت.
- الأودي، الأفوه، شعره، تحقيق عبدالعزيز الميمني، بيروت، طبعة دار الكتب العلمية، د.ت.
- البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد، الحماسة، تحقيق لويس شيخو، ط٢، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧.
- البغدادي، عبدالقادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، القاهرة، طبعة المنيرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧.
- التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي، شرح القصائد العشر، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، ط٤، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٠.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي.

- الحماسة، تعليق محمد عبدالمنعم خفاجي، القاهرة، مطبعة صبيح، ١٩٥٥.
- الوحشيات، تحقيق عبدالعزيز الراجكوني وزاد في حواشيه محمود شاكر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣.
- ابن الجلاح، أحيحة، الديوان، تحقيق الدكتور حسن محمد باجودة، الطائف، مطبعة شركة مكة للطباعة والنشر، ١٩٧٩.
- الجندي، علي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ط٣، بيروت، مكتبة الجامعة العربية، ١٩٦٦.
- الحادرة، قطبة بن أوس بن محمد، الديوان، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، بيروت، دار صادر، ١٩٨٠.
- ابن الخطيم، قيس، الديوان، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، ط٢، بيروت، دار صادر، ١٩٦٧.
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، المقدمة، تحقيق الدكتور علي عبدالواحد وافي، ط٢، القاهرة، طبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٥.
- ابن أبي سلمى، زهير، شرح الديوان، صنعة ثعلب، القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، من منشورات الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤.
- ابن شداد، عنترة، شرح الديوان، تحقيق وشرح عبدالمنعم عبدالرؤوف شلبي، ط١، بيروت، طبعة دار الكتب العلمية، ١٩٨٠.
- شيخو، لويس، شعراء النصرانية، بيروت، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، ١٩١٢.
- الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى، المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، ط٦، بيروت، ١٩٦٤.
- ابن الطفيل، عامر، الديوان، تحقيق كرم البستاني، بيروت، طبعة دار صادر، ١٩٧٩.

- ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، شرح وضبط أحمد أمين ورفيقه، القاهرة، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، "أكثر من طبعة".
- عبدالرحمن عفيف، الشعر وأيام العرب في الجاهلية، ط١، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٤.
- ابن العبد، طرفة، الديوان، تحقيق علي الجندي، القاهرة، مطبعة الرسالة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٧.
- الغنوي، طفيل، الديوان، تحقيق محمد عبدالقادر، بيروت، مطبعة معتوق إخوان، ١٩٦٨.
- القالي، أبو علي، الأمالي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٦.
- القلقشندي، أبو العباس، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، طبعة المؤسسة المصرية العامة للترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٣.
- ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد، أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تحقيق أحمد زكي، القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٥.
- المعيني، عبدالحميد محمود، شعر بني تميم في العصر الجاهلي، بريدة، منشورات نادي القصيم الأدبي، ١٩٨٢.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٣٧٤.
- النحاس، أبو جعفر، شرح القصائد التسع المشهورات، تحقيق أحمد خطاب، بغداد، مطبعة الحكومة، ١٩٧٣.
- هذيل، شرح ديوان أشعار الهذليين، صنعه السكري، مصر، طبع دار الكتب، ١٩٤٨.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله، معجم البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.